سمعت من ... عداس : بل قل لقد هداني فيمن هدى ، ولقد جئ به بحديث ما سمعت أعذب منه . لقد حفظت بيته ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربي ، وما حفظ أحاديثكم على يسير . قال عتبة : فهات أعد علينا ما سمعت . قال سمعته يقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادئ ، وأغرق سيداه في وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ونظر القرشيان أحدهما الى بعض نظرة المستخذي الأسف . ثم قال عتبة لعداس : أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك وطاعته ، ولكن لا تنس أن لنا عليك حقاً وطاعة ، وأنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك الى ما نكره ، وتضطر قومنا فينا الى ما تكره

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابني ربيعة بعد موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفسه تنازعه الى صاحبه ، وإذا هو يحرض الرقيق ويبث فيهم الدعوة الى الخروج على سادتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون الى العسكر مسرعين وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبي فيهديهم الى الاسلام ويردهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت في رقيقها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول النبي الكريم : كلا ! هؤلاء عتقاء الله

ط حسين

منطقة الإيمان

للاستاذ توفيق الحكيم

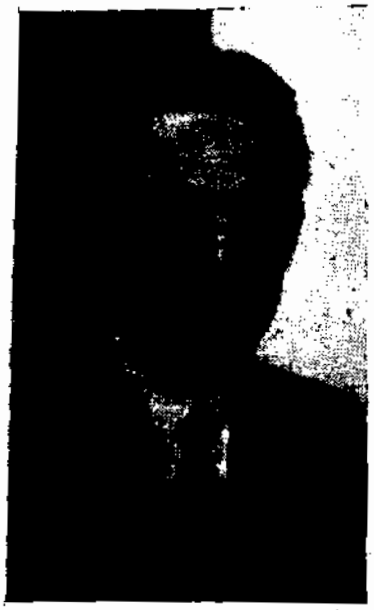

حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق ؛ وكنت أفكر كثيراً في أمر ذلك الشرير الذي طالعت صحيفة حياته فاذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامي متطلعاً الى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا . هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء ، لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء لم يتطرق اليها فساد : منطقة العقيدة ! أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشني أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك بقي عقله حراً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث في الخالق والخليقة حتى يذهب هو في التدليل والمنطق كل مذهب الى أن يقع في الالحاد وإنكار الجنة والنار . وينادي المؤذن بالصلاة فاذا القاضي يسرع مخلصاً الى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فان هذا القول يؤدي حتما الى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا الى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛ فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين

لحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية
ير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً فى منطقة العين لا يعتبر
وجوداً فى منطقة الأذن ، فهذا الحجر الساكن حقيقةٌ تراها
لعين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ،
ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها وهو عالم
الأصوات لا يخطر له على بال أن فى الوجود عالما يسمى عالم المرئيات .
فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة
العقلية ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها . ولكنها
الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فاذا كانت
العقيدة مرجعها القلب ، فان العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى
يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع فى دائرة القلب .
فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عند القلب ؛
أما العقل فان استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فانه قد
يرتاب فى صحة تلك الصفات المنسوبة اليه ؛ وقد يراها فى منطقة
صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له ، لأنهم وهم
بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف
الاكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ،
وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد
فى جسم الانسان مثلاً أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الانسان
الخارجى وهى جزء منه داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو
وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم فتحولها الى إفرازات دون
أن تدرى من أين جاءت ، ولا الى أين تذهب . العقل أيضاً يرى
الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدرى من أين جاءت ولا الى أين
تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى
تمر بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد
منه المستحيل ، كمن يطلب الى الكبد مضغ الطعام . فالحقيقة العقلية
أو العلمية شىء ، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شىء آخر ؛ وإن
رجال الدين يقعون دائماً فى الخطأ ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما
قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب
كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم فى كلتا الحالين
أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين ، وأن يعتقدوا تمام
الاعتقاد أن العلم فى كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن
لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم
ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون
أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله ، وأن أولئك
الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله
والشك والتشكيك فى جوهره ووجوده ، لم يستطيعوا لحظة واحدة
أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود
الاسمى الذى يبده نفوسهم . إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام
المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر
ولا تدرى شيئاً عن المعركة الحامية القائمة فى تلك الرؤوس .
فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . على أن اجتهاد
المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع
بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق
وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ...

وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شىء مفيد للبشر
فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل
للنفوذ إلى المجهول ؟ . فى الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة
يتكون من هذين الوجهين . فالدين كقانون اجتماعى ينظم الغرائز
ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الانسان ،
متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان
ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد
فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » ؛ إنما قوة الدين وحقيقته
فى العقيدة والايمان « بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو
من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الانسانى ، بل
يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الاحاطة ، والذات الأبدية
لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود . فالاتصال
بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . هاهنا يبدو عمل الدين
ضرورة للبشر . إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت
نظر رجال الدين الى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث
يتكلم فى الدين عن طريق العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على
حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ؛ ولا بد لنماء ملكة
العقل من التفكير الحر الطليق ، كما لا بد لحياة ملكة القلب من

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)